سجون بغداد
زمن العباسيين
للأستاذ صلاح الدين المنجد

— ١ —

تمهيد

ما نحسب أن أحداً من المتقدمين أو المحدثين ، بحث في السجون على التفصيل . فهذا مبحث بكر طريف ؛ سنحاول فيه أن نقدم إليك صورة واضحة تبين لك سبب السجن ، وتريك أنواع السجون وضروب السجنى ، ثم تطوف عليهم ، فترى ما يأكلون وما يلبسون ؛ وكيف يفرّون ومتى يخرجون . فإذا فرغنا عقدنا فصلاً خاصاً بأدب السجون ، فأسمعناك طرفاً من الشعر الشرق الذي قيل في السجن المظلم . ثم استدركنا ما فاتنا من الحوادث والأخبار المتعلقة بهذا الموضوع .

أسباب السجن

يتساءل الإنسان عند البحث في هذا الموضوع ، عن الأسباب التي كان الناس يساقون بها إلى السجن . أفكانوا ينهجون نهجاً أو يتبعون شريعة إذا خرج عنها واحد ، عوقب بالسجن ؟ الحق أنه لم يكن شيء من هذا ، فقد كان يكفي أن يقول الخليفة أو الأمير أو صاحب الشرطة « الحبس » حتى يُودعوا من لُفظت بسببه المطبق[1] . فقد كان الحبس سلاحاً في يد الخلفاء والوزراء ، وقوة يكيدون بها المتمردين والعاصين والأعداء ، ويهددون مخالفيهم فيما يشتهون ويحبون .

على أننا إذا استقرينا النصوص والأخبار ، نجد أسباب السجن تتلخص فيما يلي :

(١) الوزارة سبيل السجن

ومن العجب أن نرى أن الوزارة كانت سبيلاً يوصل إلى السجن في غالب الأحيان . وندر مَنْ نجا من الوزراء ولم

(١) كتاب الديارات (مخطوط) انظر مثلاً دير مدبان

إلا وجهه الواحد الذي ركبه الله له . ولسانه الفرد الذي وضعه فيه ، وبما منه إلا قانون واحد يسوق بعصاه الوجيه والخامل ، والكبير والصغير .

وقديماً نال بعض قضاتنا أذى كبير من أجل إقامة العدل ودحض الظلم ، والصدع بالحق ؛ ولكنهم صبروا فأعزهم الله بصبرهم وأظهرهم وأعلى أمرهم . هذا الحارث بن مسكين قاضي مصر يحمل إلى المأمون أيام المحنة ، محنة الدين والخلق التي جربت فيها صلابة الرجال ، وقوة العزائم ففاز في هذا الامتحان أقوام وخسر أقوام . وكان إمام القائلين أحمد بن حنبل — فيظل الحارث على ما يرى أنه الحق — ما لانت له عزيمة ولا وهت له قوة . وهذا عمر بن حبيب القاضي لا يسعه أن يسمع الطعن على أبي هريرة ويسكت فيحتسب ذمه عند الله ويرد رأي الخليفة العظيم الذي قال للغمامة أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك : هارون الذي أباد البرامكة في ساعة وكانوا أعزة الأرض وكرام الناس ، يرد عليه فيغضب ويعرضه على السيف والنطع ، فيغلب حقه وثباته عليه ، بطشة الرشيد البطاش ، فيلين ويعفو ويكافىء ويشكر .

* * *

أو سمعتم قصة سلطان العلماء العز بن عبد السلام القاضي ، أحد أفذاذ البشر علماً وحزماً وإيماناً ومضاء ، لما صح عنده أن المماليك لم يفارقهم الرق وهم حق لبيت المال ، والمماليك يومئذ هم الملوك يا سادة ! هم أصحاب الدولة والسلطان ، فنادى ببيعهم فقاموا عليه قومة رجل واحد ، وقام معهم كل متزلف من الناس لذوي الإمارة ، وهددوه وسعى ساعيهم بالسيف إلى باب داره ، فنزل إليه فأطفأ بهيبة إيمانه شعلة غضبه ، وفلّ بعزيمته حدّ سيفه . وبقي على موقفه منهم حتى باعهم في سوق العبيد وقبض أثمانهم .. يا أيها السادة . إن منّا قضاة كانوا يبيعون الملوك[1] !

(دمشق) علي الطنطاوي

(١) اقرأوا ترجمة هذه القصة إلى لغة الأدب عند إمام البلغاء صاحب (وحي القلم) .

يسجن . وربما قتل ولم يحبس ، وربما صاب الأمران معاً . فقد سُجن يعقوب بن داوود وزير المهدى[١] ، وجعفر بن يحيى وزير الرشيد ، ويحيى بن خالد وابنه الفضل[٢] وسجن محمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم والواثق بعد أن صودرت أمواله ، ونهبت دوره ، وضُمّت إلى القواد ضياعه[٣] . وسجن ابن الخصيب وزير المعتمين ونكب[٤] . كما حبس أبو الصقر وزير المعتمد ، وقتل[٥] . ولم ينج محمد بن عبيد الله من السجن ، فقد عزله المقتدر من الوزارة وحبسه مع ابنه[٦] .

وسبب ذلك أن الخليفة كان يستمع إلى أقوال المنافسين ، ويصغى إلى مقالة الحاسدين ، فيأمر بعزل وزيره وسجنه . فإذا لم يسجن ، جاء خلفه فسجنه انتقاما منه ، وخشية أن يشغب فيبعده عن السلطان .

(ب) مناوئو الخليفة

أما مناوئو الخلافة ، والشاغبون عليها ، فكان مثواهم السجن . فقد سُجن عبد الملك بن صالح وقد سُمي به عند الرشيد بطلب الخلافة[٧] ؛ وسُجن العباس بن المأمون عند ما دعا إلى نفسه ، فمات فى الحبس[٨] . وحُبس الإفشين لما شق عصا الطاعة على الخلافة ، ولم يجدوا بداً من اتهامه بالزندقة ليقتلوه[٩] .

(ج) المرتدون والمصادرات

وكانت الديون والمصادرات تودي بصاحبها إلى السجن . وكثيراً من صودرت أموالهم وأودعوا السجون ، ثم أتى بهم فنوقشوا الحساب ، وطُلب منهم رد الأموال . حدّث سليمان ابن وهب قال :- « كنت أنا والعباس بن الخصيب ، مع خلق من العمال والكتاب معتقلين فى يدى محمد بن عبد الملك فى آخر وزارته للواثق ، نُطالب بقايا مصادرات فقُبض علىّ وأودعت الحبس . فسمعت ليلة صوت الأقفال تُفتح فلم أشك فى أنه القتل وفُتحت الأبواب ... وحملنى الفراشون لثقل حديدى وحُملت إلى اسحق بن ابراهيم ، وكان صاحب الشرطة ، فإذا فيه صاحب ديوان الخوارج ، وصاحب ديوان الضياع ، وصاحب الزمام ، وبعض الكتاب . فطُرحت فى آخر المجلس . فشتمنى اسحق ابن ابراهيم أقبح شتم ، وقال : « يا فاعل ويا صانع تعرّضنى لاستبطاء أمير المؤمنين ؟ أين الأموال التى جمعتها وحُبست بسببها ؟ فاحتججت بنكبة ابن الزيات . فقال لى صاحب ديوان الضياع : أخذتَ من الناس أضعافَ أضعاف ما أدّيت ، وعادت يدك إلى كتبة إيتاخ فأخذت ضياع السلطان وأقطعتها لنفسك وحزتها سرقة إليك ، وأنت تستغلها ألفى ألف درهم ، وتتزيّا بزىّ الوزراء »[١] .

وقد ذكر التنوخى كثيراً من أحاديث هؤلاء المسجونين لديون ومصادرات فليرجع إليه .

(د) الزنادقة ، الشعوبية ، القرامطة ، المزدكية ، الرافضة :

وكان الزنادقة يقتلون طوراً ويسجنون طوراً . وربما اتخذوا الزندقة سبيلا للقتل أو السجن . وكان الزنادقة يودعون سجناً خاصاً فى المطبق . ذكر أبو نواس قال : كنت أتوهم بحّاد عجرد إنما يُرمى بالزندقة لجونه فى شعره ، حتى حبست فى حبس الزنادقة فإذا حماد عجرد إمام من أئمتهم ، وإذا له شعر مزاوج بيتين بيتين يقرأون به فى صلاتهم[٢] .

وقد سجن أبو نواس متهماً بالزندقة ؛ وكان قد عرّض بالأمين (صاحب التاج) وأعتقد أن تعريضه هو سبب سجنه ، وأنهم جعلوا الزندقة سبباً . فقد قال :

وقد زادنى تيهاً على الناس أننى ... أرانى أغنامهم وإن كنت ذا فقر
فلو لم أنل فخراً لكانت صيانتى ... قنى عن جميع الناس حسبى من فخر
فلا يطمعن فى ذاك منى طامع ... ولا صاحب التاج المحجب بالقصر

فقال له الأمين وقد أُتى به « أبَلَغَ بك الأمر إلى أن تعرّض فىّ فى شعرك يا ابن اللخناء...؟ » ثم اتخذوا عليه حجة أنه زنديق؛

(١) القبرى ص ٢٢١
(٢) العقد الفريد ج ٣ ص ٢٧٠
(٣) الطبرى حوادث سنة ٢٣٣
(٤) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٠٥
(٥) الآداب السلطانية لابن طباطبا : ص ٣٠٠
(٦) المنتظم لابن الجوزى : ج ٦ ص ١٢١
(٧) الطبرى حوادث سنة ١٨٢ : ١١
(٨) البدء والتاريخ للبلخى : ج ٦ ص ١١٤
(٩) ابن الأثير : ج ٦ ص ١٩٠ ، والبلخى ج ٦ ص ١٢١

(١) الفرج بعد الشدة للتنوخى ج ١ ص ٤٣ .
(٢) الأغانى ج ١٣ ص ٧١ .

قد شرب ماء المطر مع الخمر ، وقال : ها أنذا أشرب الملائكة ، فإن مع كل قطرة ملكا ... »[١] .

ومن الطريف أن نتابع القصة : فقد ذكروا أن خال الفضل ابن الربيع كان يتعهد المحبوسين ويسأل عنهم . وكانت فيه غفلة . فدخل على أبي نواس فقال : ما جرمك حتى حبست في حبس الزنادقة ؟ أزنديق أنت ؟ فقال : معاذ الله ! قال أتعبد الكبش ؟ قال : ولكني آكله بصوفه ! قال : أفتعبد الشمس ؟ قال : والله ما أجلس فيها فكيف أعبدها ؟ قال : أفتعبد الديك ؟ قال : لا والله ، بل آكله ... ولقد ذبحت ألف ديك لأن ديكا نقرني مرة ، فحلفت ألا أجد ديكا إلا ذبحته . قال : فلأي شيء حبست ؟ قال : لأني أشرب شراب أهل الجنة ، وأنام خلف الناس . فقال : وأنا أيضاً أفعل ذلك . فخرج خال الفضل إلى الفضل وقال له : ما تحسنون جوار الله ! تحبسون من لا ذنب له ؟ سألت رجلا في الحبس عن خبره ، فقال كذا وكذا ، وعرّفه بما جرى بينهما ، فضحك ودخل على الأمين فأخبره الخبر ، فأمر بتخليته[٢] .

وكان الشعوبيّون يسجنون لتهجمهم على العرب ، وقد سجن الرشيد أبا نواس لقصيدة قالها وهجا العرب بها[٣] .

وحُبس فيما بعد ، محمد بن هارون الورّاق الملحد ، ومات في السجن ، وطُلب ابن الراوندي الملحد لسجنه ففر[٤] .

وسجن المقتدر رجالاً كثيراً من الدُعاة إلى القرامطة والذاهبين مذهبهم ، وسجن جماعة من الرافضة ، كانوا يجتمعون في مسجد لسب الصحابة والخروج عن الطاعة[٥] .

(هـ) مخالفة رأي الخليفة ، ارهاب النبوة

وكان مخالف رأي الخليفة أو الوزير معرّضاً للسجن . وقد سُجن ألوف وقتل ألوف في محنة خلق القرآن : وكان أحمد بن حنبل ، الذي لم يقل بخلق القرآن ، أحد من سجنوا[٦] .

وكان المتنبئون يسجنون إن لم يقتلوا . وقد كثر التنبؤ في عصر بني العباس وكان لأصحابه مع الخلفاء نوادر وأحاديث[٧] .

(١) الطبري حوادث سنة ١٩٨ جـ ١١ ، واللطائف والنوادر صـ ١٢٥ .
(٢) الملح والنوادر للحصري صـ ١٣٤ - ١٣٥ .
(٣) حديث الأربعاء : ١١٣ .
(٤) المنتظم لابن الجوزي : جـ ٦ صـ ١٠٢ .
(٥) المنتظم لابن الجوزي جـ ٦ صـ ٣١٧ .
(٦) البدء والتاريخ للبلخي جـ ٦ صـ ١٢١ .
(٧) مروج الذهب للمسعودي جـ ٢ صـ ٣٣١ ، وتاريخ بغداد لابن طيفور صـ ٦٥ .

(و) الجبن ، الفسق ، الشراب

وكان المستهترون والفساق يسجنون حتى ينالهم العفو . وذكر ابن المعتز أن إسحق بن إبراهيم لما بلغه ما فيه أبو العبر من الخلاعة والمجانة أمر بحبسه . فكتب إليه أبو العبر رقعة يذكر أنه تائب ، ويسأله أن يخرجه من الحبس حتى يعلمه رقية العقرب فأحضره وقال : هات علمنا . فقال : إذا رأيت العقرب فتناول النعل واضربها ضربة شديدة فإنها لا تعود تتحرك ...

فضحك وقال والله إنه لا يفلح أبداً[١] .

وأمر الهدى إبراهيم الموصلي ألا يشرب ولا يتبذل ولا يغني ، ففني إبراهيم عند إخوانه وتبذل وشرب ، فضربه ثلاثمائة سوط ، وقيده وحبسه[٢] .

ووجد المعتمد أبا دلامة زيد بن جون سكران في بعض الليالي فقبضوا عليه ، وأخذوه فخرقوا ثيابه وساجه وحبسوه . فلما أفاق قال أبياتاً وأرسلها إلى المنصور منها :

أمير المؤمنين فدتك نفسي ... علام حبستني وخرقت ساجي
أمن صهباء صافية المزاج ... كأن شعاعها ضوء السراج
وقد طُبخت بنار الله حتى ... لقد صارت من اللطف النضاج
أقاد إلى السجون بغير جرم ... كأني بعض عمال الخراج[٣]

(يتبع)

صلوح الدين المنجد

(١) طبقات الشعراء لابن المعتز صـ ١٦٢ .
(٢) الأغاني جـ ٥ صـ ٥ .
(٣) ثمار القلوب للثعالبي صـ ٥٢ .

الرفق ، والسرعة ، والنظافة

والدقة ، واعتدال الأسعار

كل هذا تجدونه في

مطبعة الرسالة

وهي مستعدة لطبع الكتب والمجلات العربية